فن الرواية العنصرية في كتاب " الأفكح "

باختصار يمكن ان نصف رواية « اريك بيس » الاخيرة بانها محاولة لتقليد رواية « ليون اوريس » الشهيرة « اكسودس » ، وبالرغم من ان هذه الاخيرة تشكل نموذجا منحطا ، من الناحية الفنية والتاريخية ، للاعمال الدعاوية التي تلبس نفسها الشكل الفني ، فان رواية « بيس » هي تقليد مشوه وفظ « لاكسودس » ، التي اضحت منذ اواخر الخمسينات دليلا رخيصا للشهرة الرخيصة في اسواق تتميز بالخضوع «للبضاعة» الادبية التي تخدم الاهداف الدعاوية للصهيونية، فتحظى ببركتها . على ان اهمية رواية «الافكح» هي في ان كاتبها ، اريك بيس ، هو مراسل « للنيويورك التايمز » الاميركية في الشرق الاوسط ، ويتخذ من بيروت مقرا له ، وقد جرى تعيينه في هذا المنصب بعد ان نشر روايته التي نحن بصددها في شتاء ١٩٧٠ ، وهي من الروايات القليلة التي تلعب فيها ظاهرة « المقاومة الفلسطينية » دورا رئيسيا والتي نشرت في الغرب في الفترة الاخيرة .

وفي الحقيقة ان فترة طويلة نسبيا قد مضت منذ كتابة « اكسودس » ، التي قدم للحركة الصهيونية خدمات لا يمكن تقديرها بثمن بالرغم من ان احدى الشخصيات الاسرائيلية وصفته بانه « كتاب فظ ومبتذل ، ولكنه رائع بالنسبة لليهود الاميركيين » (راجع جون كمشه في الجويش اوبزرفر عدد ١٧ مجلد ١٠ بتاريخ ٢٧ ـ ٤ ـ ١٩٦٢) .

والواقع ان رسالة « اكسودس » كانت محددة، اذ انها كانت تهدف الى خلق شخصية «اليهودي المعصوم » ، المتفوق عقليا وبدنيا ، والذي تنطبق عليه الاوصاف التي رسمها الرواد الصهاينة الاوائل الذين وعدوا الاستعمار الغربي بان تلعب اسرائيل دور الحارس الامامي لحضارة الغرب ضد بربرية وهمجية الشرق . ولكن « ليون اوريس » ، كي يستطيع ان يرسم صورة هذا « الاسرائيلي المعصوم والمتفوق » ، لم يستطع الا ان يضعه مقابل « العربي المنحط والمخطىء » ، وهكذا فقد جاءت اكسودس نموذجا شديد الوضوح للعنصرية في احد اشكالها الاكثر صفاقة وقرفا ، ومع ذلك فقد نجحت الصهيونية في ان تجعل هذه الرواية بالذات ، طوال ما يقرب من عشر سنوات ، احد المصادر الاساسية بالنسبة للمواطن الاوروبي والاميركي العادي في تعرفه على « الوضع في الشرق الاوسط » .

بمجيء « اريك بيس » ، بعد خفوت الحمى الاعلامية التي روجتها رواية اكسودس ، في محاولة جديدة لاحيائها ، وذلك في روايته « الافكح » التي تقدم نموذجا للعنصرية والكراهية تفوق في الواقع المستوى الذي قدمه اوريس ، لان هذا الاخير كان يتمتع بحد ادنى من القدرة على استخدام الادوات الفنية ، جعلت فظاظة العنصرية في روايته تبدو اقل مباشرة مما هي عند « بيس » ، فقد اضاف « بيس » الى تحيزه وضيق افقه وانتهاك لطبيعة النموذج الانساني ، ركاكته كروائي ، الا انه حاول ان يغطي هذا العالم المتفكك الذي يستند اليه بمعلوماته التفصيلية كمراسل صحافي استخدم هذه الصفة للاحتكاك بالمقاومة الفلسطينية ، ومن ثم استعار جزئيات ، قد تكون صحيحة ، لاعطاء الصورة المصطنعة التي بناها طابع الواقعية .

ان السؤال المهم هنا هو عما اذا كان «اريك بيس » في رواية « الافكح » يستطيع ان يكرر في السنوات القادمة ، الدور الذي لعبه ليون اوريس في روايته « اكسودس » ، بالرغم من انه من الناحية النظرية على الاقل ، حدث تطور في كمية ونوعية اطلاع الراي العام العالمي في متوسطه على مسالة الشرق الاوسط ؟

ان الجواب يحتاج الى شيء من الانتظار وشيء من الوقت ، ذلك انه اذا كان من الصحيح ان « اريك بيس » يستخدم نفس الادوات الدعاوية الصهيونية التقليدية ، بكل ما فيها من تضليل وعنصرية ، وهي الادوات نفسها التي استخدمتها عشرات الروايات الصهيونية في العشرين سنة الماضية واستهلكتها بتكرار لا مثيل له ، فانه من غير المعروف فيما اذا كانت هذه الادوات ما تزال قادرة على الوصول الى التاثير نفسه في اوساط الراي العام العالمي رغم كل ما طرا من احداث في السنوات الاخيرة .

وفي الواقع فان هذه المسالة تصبح دقيقة جدا ، لان اريك بيس اجرى تطويرا واحدا في روايته يختلف فيه عمن سبقوه في هذا المضمار ، وهذا التطوير هو في انه جعل المقاومة الفلسطينية على وجه التحديد « البطل السلبي» في روايته ، اما في الروايات الصهيونية المعروفة فقد كان « البطل السلبي » غالبا هو « العرب » و « الجيوش العربية » وفي احيان قليلة (عند الضرورة) « الفلسطينيون » ، وهذا التطوير الذي اجراه بيس يخضع بالطبع لمعادلة معينة ، اذ انه لم يعد يستطيع ـ بعد ـ ان يتجاهل شعب فلسطين مثلما فعل الذين سبقوه ، ومهمة الرواية هي على وجه التحديد تهشيم هذا البطل الجديد .

> **« لماذا المقاومة .. ؟ »**
>
> مؤخرا ، انتجت رابطة الخامس من حزيران اللبنانية ، فيلما عن المقاومة الفلسطينية ، وهو متوسط الطول : ٤٥ دقيقة . اخرجه كريستيان غازي ، وعنوانه : لماذا المقاومة ؟
>
> تقول المعلومات عن الفيلم الذي سيعرض في فصل الصيف الحالي ، انه يتناول قضية الشعب الفلسطيني منذ ثورة ١٩١٩ ، حتى الايام الحاضرة . ويرمي الى توضيح فكرة الكفاح المسلح ، الطريق الذي اختاره هذا الشعب لتحرير وطنه ، والاطاحة بالدولة العنصرية ، التي انشاتها الصهيونية العالمية بمساعدة الامبريالية . والحل الذي طرحته المقاومة بانشاء دولة ديمقراطية ، تنفي كل اشكال التمييز : الديني والقومي والطبقي .
>
> يضم الفيلم الى جانب عدد من المقابلات السينمائية الطويلة ، مع بعض الفنيين والمشتغلين بالقضية الفلسطينية ، مقاطع من افلام تسجيلية ، او نصوص مصورة تشير الى فترات معينة ، من تاريخ الكفاح الفلسطيني . اضافة الى مشاهد تمرين الفدائيين والاشبال وتدريباتهم ، والمظاهرات التي سبقت حملة ايلول الدامية .
>
> هذا ، والفيلم انتج خصيصا ليعرض في عدد من الجامعات الاجنبية ، والغرض طرح استراتيجية المقاومة وشرحها ، بما يدحض المزاعم الصهيونية والرجعية ، ويوضح فكرة الدولة الديمقراطية.

هنالك قاسم مشترك واحد بين الغالبية الساحقة من الروايات الصهيونية (وهي الروايات التي كتبت بمختلف اللغات لخدمة عملية الغزو والاستيطان على صعيد العمل الفني) . ولو اخذنا عددا محددا من هذه الاعمال الروائية لاستكشاف هذا القاسم المشترك لوضعنا ايدينا على ظاهرة يكاد لا يوجد ما يماثلها في تاريخ الادب . لناخذ مثلا ، « اكسودس » لليون اوريس ، و « نجمة في الريح » لروبرت ناثان ، و « النصر الاعظم » لليستر غورن ، و « الاغراء الاخير » لجوزف فيرتل ، و « لصوص في الليل » لارثر كوستلر ، و « الينبوع » لجيمس ميشنر ، و « طوبى للخائفين » و « غبار » ليائيل دايان ، فاننا نستجد ان احداث كل هذه الروايات تمشي على خطين اساسيين :

● الاول : الاعتماد بصورة او باخرى على التذكير بالجرائم النازية ضد اليهود (في احيان كثيرة البطل نفسه نجا باعجوبة من افران الغاز ، او ان اقاربه لاقوا حتفهم فيها ، وجاء الى فلسطين لينشيء علاقة مع فتاة اميركية او اوروبية (او فتى اذا كان بطل الرواية فتاة) ليناضلا سوية في سبيل انشاء (او حماية) اسرائيل .

● الثاني نموذج مشوه لاصحاب الارض الاصليين (العرب) واظهارهم في حالة « عدم جدارة » وتعريتهم من كل سبب مبدئي في القتال او النضال ، والتاكيد على صفات سلبية تظهرهم بمظهر البشر من الدرجة الثالثة .

وقد جاء « اريك بيس » في ٢٤٩ صفحة ، ليسوق قاطرة الاحداث في روايته على هذين الخطين بالذات ، مستخدما الاعمدة التقليدية للدعاية الصهيونية ، ذات البنيان المزدوج : التذكير بالنازية (والعمل على ربط سمعة الحركة الوطنية العربية بتراث النازية ربطا مفتعلا) والحط من الصفة الانسانية للمجتمع العربي ، تكوينا وافرادا ، مقابل الصحة والتفوق اللذين يتمتع بهما الاسرائيلي ، والى حد ما الاوروبي !

كيف يستطيع « اريك بيس » ان يفعل ذلك؟ كيف يمكن له ان يربط بين المقاومة والنازية ؟ لقد كان سهلا على الذين سبقوه ان يذكروا بالنازية لانهم تناولوا في رواياتهم حقبة من الزمن يمكن لابطالها ومعظمهم مهاجرون ان يمتوا بصلة ما ، مباشرة او غير مباشرة ، للتجربة الهتلرية ، ولكن احداث قصة « اريك بيس » تتناول عام ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ ، كما يبدو ، وعن المقاومة الفلسطينية ، فكيف يستطيع ان يذكر قارئه بالنازية ؟ انه يفعل ذلك ببهلوانية نادرة:

فاحداث القصة تدور حول صفقة يعقدها احد قادة تنظيم فدائي ، يسميه « كتيبة النسور » ، مع رجل الماني (يظهر فيما بعد ان والد هذا الرجل الالماني كان يعمل عند هتلر في المختبرات الكيماوية) وذلك لشراء كمية من غاز الاعصاب القاتل تكفي للفتك بسكان تل ابيب ! وهكذا تتضافر جهود بطل القصة الاميركي (وهو صحافي) مع عدد من رجال ونساء الاستخبارات الاميركية ، والاسرائيلية بالطبع ، للحيلولة دون وقوع مثل هذه العملية ، وتنتهي ـ بالطبع ـ باحباط المحاولة ! هذه البهلوانية مكنت «اريك بيس » من التذكير بالنازية ، وربطها بالمقاومة الفلسطينية . بل اكثر من ذلك : تسليط ذلك السوط الذي لا يمل الروائيون الصهاينة من استخدامه لجلب الضمير الاوروبي كلما دعت الضرورة ، نعني ذلك الرعب الذي يستثيره التذكير بالغاز وغرف الغاز .

ان كل عربي ورد ذكره في الرواية هو على الفور ضعيف الشخصية ، كذاب ، محتال ، واهم ، صريع احلام اليقظة ، مرتش ، مسلوب الارادة ، خاضع لسيطرة الجنس ، جبان ، قاتل ، قذر ، ضحل ، وخاسر بالضرورة . ان كل مدينة عربية ورد ذكرها في الرواية هي مدينة كئيبة ، قذرة ، تثير الحزن مزدحمة بالاوباش واللصوص ، هكذا هي القاهرة (ص ١١٥ ـ ١٧٠ ـ ٢٠٣) والاسكندرية (ص ١٥٦) ، وعمان .. اما بيروت « فيمكن ان تكون مكانا جميلا لو فقط امحي العرب منها » (ص ٢٥) . وفي عدد قليل من الصفحات (بدءا من ص ١١٥) يوجد اكثر من عشرين صفة للقاهرة ، جميعها بلا استثناء سلبية ، وفي الصفحة ١١ يتحدث المؤلف عن « الرعاع الذين هاجموا حي اليهود في بيروت » وهم يصيحون « الموت لليهود » ، وهذه الصورة البشعة لا يدانيها الا صورة الفدائيين وهم يجربون غاز الاعصاب القاتل (الذي اشتراه لهم من الالماني شيخ عربي ثري !) برجلين اجنبيين قرب العقبة ! (ص ٢٦) .

انه من المدهش حقا الا تحتوي الرواية ، في صفحاتها الـ ٢٤٩ ، صفة ايجابية واحدة ، واحدة فقط ، لاي شيء عربي ، سواء اكان هذا الشيء رجلا او امراة او مدينة او طفلا او رئيسا او ملكا او طريقا او بيتا ، ان كل ما هو عربي ، في الرواية ، هو اسود بالمطلق !

لقد جاء « اريك بيس » الى منطقة الشرق الاوسط ليمثل واحدة من اكبر صحف العالم ، (نيويورك تايمز) وكان ذلك في الفترة التي امتدت اثناء وبعد حزيران ، واستخدم التسهيلات التي منحت له ، وصنعته هذه ، لاستعارة « جو » المنطقة والعوامل المحتدمة فيه ، ولكنه بلا ريب فعل ذلك كله لتادية مهمة معينة : ان كمية الكراهية والتحريض على الحقد والتشويه والابتذال والتحامل في روايته لا يمكن ان تنهال كلها بالمصادفة ، ولا شك انه بالاضافة للانتهاك الفني والتاريخي الذي تمارسه الرواية ، فهي منطلقة بالاساس من انتهاك اخلاقي .

ان هذه الرواية تثير تساؤلات مهمة عن الحقوق التي ينبغي لصحافي ، او « كاتب » ، ان يتمتع بها في بلد من البلدان اذا كانت كمية الكراهية التي يحملها ضد هذا البلد هي في هذا المستوى الذي يستعصي على العلاج ، اننا نقول « كمية الكراهية » كي لا نقول ان مثل هذه الرواية لا يمكن ان تكون الا حصيلة لما هو اكثر خطرا من مجرد المزاج الحاقد . وكما ان الدبلوماسية المعاصرة تعرف ما يسمى بالاشخاص « غير المرغوب فيهم » ، الذين يجري طردهم وابعادهم، فكذلك يحدث فيما يتعلق بالمراسلين الصحافيين، خصوصا عندما يصبح انحيازهم الاعمى عائقا ليس عقلانيا فحسب ، بل مهنيا ايضا . لقد حاز اريك بيس على « جائزة الصحفيين عبر البحار » لعام ١٩٦٨ ، عن « احسن الريبورتاجات التي تحتاج الى شجاعة خاصة » ، وذلك عندما غطى اخبار حرب حزيران ١٩٦٧ ، ان روايته « الافكح » ، المبنية على كلب غوبلزي لا مثيل له لا تستطيع ان تحوز الا على جائزة التحريض العنصري المنحط .

(غ ٠٠٠)

الجراد

مقاطع

١

الجراد في كل مكان ، ولم تنج منه الاطفال وغرف البيوت الداخلية ومراكز امس اعتقل عشرة فلاحين ، رفعوا طالبوا فيها بحرية الدفاع عن النفس . الجراد مزارعهم وحيطان بيوتهم المستقبل . القرية كلها تتناقل الخبر السهرات والبيادر الخاوية ، وعندما جنازة راحلة او يحتفلون بعرس حزين . الجهة الشرقية للقرية حيث تكدست الجراد الهاجمة على الطرق ، ومداخل الناس يموتون باذن من « القصر » ، بطاقات التموين ، ويرغمون على لعضوية « المكتب السياسي للصمت » ، انشاه صاحب العظمة عقب الغزو . التمرد في اكثر المنازل فقرا . كانت سرعان ما اصبحت حقيقة ، فتشكلت لجان مكافحة الجراد التي اصدر القصر امرا التصدي لها بالموتورميا بالرصاص. فالمنطقة الا منطقة رعب وصدام ، والكل يغزوهم الذي يسبق الصوت، ويمشي بالجنزرات الصحات .

تزحف على المنازل ببطء ، وتلهث عند طرق . صوت نباح كلب يرتفع، يبتعد يلوي ، يموت ، ثم يرتفع . وقطة الاخشاب تحت حائط منهار ، وراحت تبحث البقايا ، اي بقايا ، فلم تتركها الخفير الليلي تمضي بقية الوقت بسلام ، عليها ست رصاصات متقطعة ، ولم يصدر منها او بكاء .

كان يجري خائفا ويهذي « لقد قتلته القاتل يا حكومة » ، كانت القطة تلفظ الاخيرة . اما صرصار الليل فلا وجود ان عم الرعب والخراب كل شبر من

الشارع المؤدي الى المسجد الكبير في ، تكوم رماد كتب محروقة ، واربعة عشرة ذبحهم بسكاكين مصداة ، استعملت ، لكنها قتلت . والدورية تحرس الجثث ، وتنشد نشيدا حماسيا وهي تفتش ، وتملك حق اضافة من تشاء الى الجثث على الارض . امراة وحيدة تجاسرت على في هذه الساعة ، وراحت تصرخ باتجاه ، وتسال عن ولدها . كان صوتها اقوى البكاء ، لكنه مبحوح ومخنوق ، جز احدهم راسها ، بينما تطوع ثان لبقر البطن . عند الجثث ، وخلا الشارع تماما الا من الذي تحول الى عربدة قبلية ، فاستعملت « التراويد » !

النادي ، مكان تجمع الشباب في القرية مشنقة حديثة يعلق عليها كل من ينام اكثر اربع ساعات في اليوم ، وكل امي ، وكل باستخدام الاسلحة ، وكل ازعر !

استرجع كل هذه الاماكن التي يعرفها منذ من عشرين سنة عندما ولد على ظهر عربة ، انه سترجع الان وجه قائد العربة القائم رفض مساعدة امه في تجاوز « النفاس » ارتهن ساعة ابيه ، ومن وهما والاسرة لا الزمن ، لكنه يذكر جيدا ان العربة ، فمات القائد والولدان وعاش يتيما .

ـ اه .. آخ .. زمن ! يركب قطار التقدم وجهاء التخلف .. تفوه !

ما كادت البصقة تستقر على الارض ، حتى الى النوافذ المغلقة والاجساد الطويلة . وتخيل انها تتحول الى مناشير على الجدران الترابية والمبلطة . اوراق راحة اليد ، بيضاء ، وفي المنتصف الخط الاحمر ، كلمة كبيرة .. تفوه !!

عندما وصل الى هذه النقطة في شروده ، فمرت طلقة سريعة بالقرب من النيه . جفل وهو يتحسس كل راسه ، ويلهث عندما اخذ الارض تلقائيا . وسرعان ما عاود السيطرة على نفسه واخذ يصوب البندقية باتجاه مركز الاطلاق .

دقائق قليلة حسبها العمر كله وهو يزحف بملاصقة الحيطان ، كان الجراد يرتطم بالجدران ويتساقط فاغرا فاه ، يبتلع كل شيء . انه جراد خاص بهذه المنطقة . تساقط عدد من الجراد على راسه ، والتصق به كاخطبوط ، فاخذ يصر على اسنانه بقوة محاولا الا يحدث جلبة او ضجيجا ، حتى لا ينكشف ويصبح هدف « تنشين » ! سالت الدموع بعد ان استنفد كل صبره ، وكلت يده عن طرد الاسراب غير المنقطعة على راسه . بدا يزحف زحفة «الفهد» والرصاص ما زال ساهرا دون نوم . وبينما هو يوالي الزحف ، كانت الاصوات تصله من بعيد ، خافتة ثم تعلو ، فتتضح :

ـ بلغوا اخوانكم .. انها الطريقة الوحيدة المجدية ، احرقوا فراشكم على اسطح المنازل ، احرقوا كل شيء . لا باس ، وسننام على الارض انها الطريقة الوحيدة التي يهرب فيها الجراد .

تحسس « سترته » ، نزعها ، ومد يده الى عود الثقاب واشعل طرفها بعد ان افرغ « القداحة » من « الكاز » ، ودس القطن في جيبة السترة ، ثم اتكا على كوعه الدمي واخذ يبتعد تدريجيا عن النار !

تطلع حوله ، اسطح المنازل تحولت الى مواقد للنار ، واينما تطلعت يصادفك اللهب ، الذي انكسرت اضواؤه على الحيطان المصابة والافواه المتصلبة على النوافذ . وكانت « الزغاريد » و « الله اكبر » ، و « المجد للرجال » ، تتسلل من وراء النيران المرتفعة ، الى الاذان الساهرة ، جميلة ، طرية ، منعشة وتوقظ الحماس !

٢

من نافذة صغيرة متهدمة ، في منزل « اللبن » الذي يعيش فيه ، كان يرسل نظراته الى شارع الاسفلت المجاور . ضايقته اطراف الستارة الملقاة دون نظام ، فنزعها ، والقى بها غاضبا في الركن وهو يتمتم « هذه ليست حياة ، هذه زريبة نحشر انفسنا بها قسرا ، اللعنة على هذا (العالم) ! عقد حاجبيه ، وحدق في الشارع ، ثم دق قبضة يده على الحائط « دنيا اخر زمن » ! رجل طويل القامة ، يرتدي بزة عسكرية انيقة ، يمشي على راسه ، داخل حذاء كبير ، وخلفه مظاهرة صاخبة تهتف « يسقط الجراد » و « الموت للجراد » و « العار للجراد » !

بصق على الحائط ثم سرعان ما احضر الستارة ومسحها بها . وبحث تحت (المطوى) عن علبة سجائره اللف ، وراح يقطع الوقت في تصنيع سيجارة اسطوانية . انتبهت زوجته الى قلقه وحزنه وغضبه ، فقالت وهي ما تزال ممددة على « الفرشة » الارضية :

ـ ابو ياسر ! مالك ؟!

ـ لا .. لا شيء .

ـ ماذا يحدث في الخارج ؟

ابتسم وقال وهو ما زال ينظر من النافذة :

ـ رجل يمشي على راسه داخل حذاء وخلفه مظاهرة تاييد !

تطلعت نحوه باستنكار ، واحست بلسعة في جانبها الايسر وتمتمت « انه يضحك علي ، ويسخر مني ، انا اعرف انني لست مثقفة ، لكنه تزوجني وكفى » . ورغم انفها ، هاجمها كابوس من التصورات المزعجة عن « احتقاره » لها ، ثم جمعت ما تبقى من شجاعة وقالت :

ـ انت لا تحترمني

تطلع نحوها باستغراب :

ـ ما داعي هذا الكلام ؟

ـ انا اعرف انني غير مثقفة ، وانت دائما تتحدث عن الزوجات المثقفات والحياة السعيدة .

ـ يا امراة ماذا حدث لك ؟

ـ آخ منكم يا رجال ! ثم تتظاهر بالغباء بها ! بها !!

ـ اوه ، الله اكبر ، وبعدين ؟ تعالي ، تعالي شوفي

ـ لا !

بقيت ممددة على الارض ، تفكر ، امس ليلا ، حدثها عن الحريق فوق اسطح المنازل ، وصدقته لانها حرقت « الفرشة » الثانية التي يمتلكونها كاحتياط ، « واليوم » .. سحبت شعرها ثم تطلعت الى صدرها واردفت « اولاد الحرام ، اخلوا كل شيء » وراعها ان تتشبث اعينها على الفستان « حتى الفساتين ، فرقها ذلك الجندي الاعور » ، تقلبت على جانبها الايمن ، فوقع بصرها على الزوج الذي ما زال مسمرا على النافذة ، والاربطة البيضاء تحيط بساعد يده الايمن :

ـ ابو ياسر ، تعال استريح !

ـ اسكتي

ـ بحياة ابوك تعال !

ـ يا شيخة .. اسكتي

ـ اوه خلي القيامة تقوم !

ـ ما احنا فيها !

اخذ يضحك بصوت مرتفع ، ويقول :

ـ الصف الاول من المظاهرة يقلد القائد ، انهم يمشون على رؤوسهم داخل احذية ، ان منظرهم يثير القرف والعطف والخوف ، ارجلهم الى اعلى انها مزروعة كميدان القصب ، تعالي ، تعالي شوفي .

ـ بحياة ابوك تسكت !

ـ الله ! كل المظاهرة تمشي على رؤوسها ، الناس يفكرون داخل احذية وارجلهم الى اعلى كل رجل براسين بقدمين عاريتين، ارجوك تعالي !

ـ لا

بدات تتشاغل بتفكرات نسائية خاصة ، في المتعة التي تاخذها زوجة متفرغة في البيت كل العمر ، لكنه استمر على النافذة يدخن بارتياح وخوف ، فاحست الزوجة بالملل ، ونهضت بتثاقل ، بينما كان يحاول ترك النافذة، وقالت :

ـ لا حول ولا .. سارى المظاهرة

تطلع نحوها باشفاق وابتسم :

ـ لقد اختنقت .. ارجعي .

٣

حول طاولة مستديرة ، كان اجتماع المكتب السياسي للصمت ، في الحي الغربي ، خارج القصر ، امتلات الساحات بالجنود والدبابات والمباحث . وفوق الطاولة ، عشرات الزجاجات الملونة ، والماكولات ، ونسخة واحدة مطبوعة لكل جالس فوق كرسي . في مقدمة الطاولة ، جلس رئيس المكتب الذي يشبه القمقمة بهيئة وجهه ، وبدا يقرا من النسخة المطبوعة « بعد الانتصار الساحق على الجراد ، سنتوجه لاحتلال مستنقعات المنخفض المليئة بالاسماك .. ولكن امامنا مهمة عاجلة ، لا بد من القاء القبض على ابي ياسر » !

قاطعه احدهم : متى انتصرنا على الجراد ؟!

نهض شخص من فوق كرسيه ، وقاده من اذنه ثم سلمه للحرس وتمتم :

ـ هذا الحيوان يعارض ، لا داعي للاسئلة ، متى وكيف واين ؟! المهم اننا انتصرنا ، هذه هي خطوة ، والخطوة الثانية ان ننتصر مجددا .

تململ رجل عجوز وهتف :

ـ على من ؟!

فساقه الرجل كما ساق زميله وسلمه الى الحرس وعاد يزمجر :

ـ يا اولاد الكلب ، لا داعي للاسئلة ، انتم جواسيس ، خونة ، لماذا تسالون ، الا تثقون بالسلطان ؟!

قبل ان يكمل جملته ، تنحنح شاب صغير وطلب الاذن بالخروج ! وما تبقى كانوا يرفعون ايديهم شارة الموافقة طول الوقت .

السلطان ما زال على راس « المنصة » ! قرا الفقرة الثانية من النسخة المطبوعة ، واستاذن الجلس ليذهب الى « المرحاض » ! وخلال غيبته وبينما كان الرجل العنتري ما يزال واقفا ، ومتحفزا لمسك اي اذن وتسليم صاحبها الى الحرس ، كان الجميع قد ناموا ، ولم يعد السلطان ، ولكن الجيش تلقى امرا بالتحرك لالقاء القبض على ابي ياسر !!

٤

آثار تاكل الحيطان ، الزرع ، الرؤوس ، ما زالت تترك بصماتها على الشوارع ، الاحياء ، والمنازل . رجل يسير ونصف راسه مفتوح للهواء لقد اكله الجراد . دوريات عسكرية تجوب الشوارع . وثلاثة ارباع الفتيان احاطت بهم الاربطة ، وطوقت سيقانهم . وعلى الرصيف مئات من رجال المباحث . قال فلاح فقير لزميله :

ـ يقولون ان الجراد سيعود

ـ وهل تغلبنا على آثاره حتى يعود ؟ انه موجود

ـ آه .. ماذا نفعل ؟

ـ لا تتحدث انه ينظر نحونا ، ذلك المباحثي الحقير !

ترك الرجل المباحثي الرصيف وتوجه نحوهما، بينما كان ابو ياسر يسير وسط مجموعة مسلحة من الرجال في منتصف الشارع العام . علق رجل يبيع الخضار على عربة صغيرة متنقلة :

ـ سيعتقلهم هذا الزنديق !

التفت نحوه شاب كان يختار رطلا من « البراميه » :

ـ من سيعتقلهم ، هذا الازعر ؟!

المدينة الراكدة على السطح ، تتحرك بشكل كثيف في الاسفل ـ كل الحركات الخارجية تحمل بركانا في الداخل . حتى مؤذن المسجد خرج عن صمته ، وهو في دكان الاوعية القديمة :

ـ الله يستر ! يقولون ان الجراد سيعود ! ونحن ناكل انفسنا !

ـ وبعدين ؟

ـ سنتركها لله !

صفارات الانذار ، لا تصل الى كل منزل ، والحيطة لا يعرفها كل الناس ولا يقدرون عليها . البعض زرعوا انفسهم في الشوارع وعلى اسطح المنازل ، والبعض الاخر نام في الملاجيء عند الظهر ، وعربات تمشي . والجراد يهاجم المنطقة بالملايين .

ـ لقد بدا القتال اهربوا !!..

قالها شاب اعزل كان يسابق قدميه ، فبدا الضجيج بالازقة ، وتحت الارض وفوق (مسطبات) الغرف الصغيرة . خرج الى الميادين والشوارع الرئيسية مئات والاف الرجال . بعضهم استشهد والبعض مات، وصوت يقتحم المدينة ، يتضخم ، يكبر :

ـ انتبهوا ايها الناس .. ان للجراد انصار في الداخل ، لقد توحدت صفوفهم ، دافعوا عن المدينة واتحدوا !

وما كاد الصوت يلتصق على الجدران ، ويدخل المنازل ، ويرسخ داخل الكثير من الجماجم المنتصبة ، حتى حفرت المدينة لنفسها خندقين فتح احدهما للجراد مزارعه وابواب المنازل . وما زال ابو ياسر يردد نفس النداء . في حين آخر !

علي حسين خلف ـ عدن

الهدف ١٩